



خاض جيمس القحطاني، وهذا بالمناسبة ليس أسمه الحقيقي، مغامرة مدوية. مكث عدة سنين "ببذر البذور" كي يتم الاعتراف بخبراته في بلاد العروبة رغم "قحطانيته" و"الإستفادة منه". حاول أن يتسلل عبر خبرات راكمها في بلاد الفرنجة، لكنه واجه صعوبات كأداء. كان تعريفه كـ "عدنان القحطاني"، وهذا بالمناسبة أسمه الحقيقي، العقبة الكبيرة أمام الإعتراف به "خبيراً". كان أصدقاء عدنان من الفرنجة قد داوموا توجيه النصيحة له بتوظيف علمه وتجاربه وشهادته وخبراته لخدمة وطنه الأم وعروبته بدل أن يستنزفها هنا وهناك في بلاد بني الأشقر. كان أصدقاء عدنان من القحطانيين والعدنانيين الخُص يصفعونه بذات النصيحة بين الحين والآخر. عدنان مشقت بين كرامة يتنفسها في بلاد الفرنجة، وإحساس بالتقصير تجاه بلاده، حيث لا كرامة، وظل هذا التشتت ينغص عليه عيشته في الغرب.

عندما قرر عدنان أن يساوم على الكرامة من أجل الوطن ويعيش مطأطأ الرأس كبقية جحافل الشعب أكتشف أن أسمه ثقيل الوطأة على لسان الأعراب. كانوا يبحثون دوماً عن من يعيش عدنان بينهم ويرافقهم، وليس عنه هو. يأتي إلى بلاده فارغاً طويلاً وعرضاً فلا يرونه، يصوبون النظر على من معه من زملاء أو أصحاب "فرنجة". كان يتجمد في مكانه، وكان أصحابه "الفرنجة" هم من يتقدمون... لأنهم "خبراء" و"مستشارون". لا يهم إن لم تكن كفاءاتهم تؤهلهم لأي عبقرية مميزة أو خبرة أو ملفتة، المهم أنهم أجنب. أصبحوا أعلاماً يُستشارون ويشيرون في بلاده في أشياء كثيرة. من هذه الأشياء وهذا ما صدم عدنان في العمق وصولاً الى المرارة، قدموا استشارات "ثمينة" و"مكلفة" في الثقافة واللغة العربية والإعلام العربي... وكيف نتج أيضاً ثقافة عربية! صحيح أنهم لا يتحدثون العربية، ولا يعرفون الثقافة، ولا ما يحزنون أو ما يفرحون، لكن ذلك كله لا يهم، المهم هي "أفرنجيتهم". مستشارون، خبراء، ومدراء مدراء، من كل رقعة من رقاع بلاد الفرنجة جيء بهم إلى بلدنا كي يقولوا لنا كيف نكون نحن! قال عدنان لنفسه بحنق، نفهم أن يكونوا في حقول التقنية والتكنولوجيا، أما أن ينظروا علينا فيه ميدان الثقافة واللغة والإعلام والاجتماع وحتى الدين، فهذه سفالة ونقطة آخر السطر. مؤهلاتهم الأساسية: سحنة غريبة (شعر أشقر، وعيون ملونة)، وإسم أجنبي. لكن المشكلة بصراحة ووضوح ليست فيهم، بل في من جلبهم!

على العموم أكتشف عدنان المسألة متأخراً. في الحقيقة كان يعرفها مبكراً لكنه تخادع مع نفسه قائلاً تغيرت الأمور. صفته الأمور في وجهه وقالت أنا لا أتغير! فكر عدنان ماذا يفعل. شعره أسود وعيونه بنيه ولون جلده حنطي، صفات يصعب تغييرها، لكن ليس هناك ما هو مستحيل على الطب المعاصر - وليكن له في مايكل جاكسون القدوة والمثال.



عدنان وضع خطة محكمة للعودة كـ "خير" إلى بلاده، لكن على أن يتم احترامه كـ "أجنبي" لا كابن بلد أو عربي. اتخذ عدة قرارات مصيرية: أولاً: صبغ الشعر الأسود باللون الأشقر، ثانياً، اعتماد عدسات لاصقة تحول لون عيونه إلى الأزرق الفاقع، ثالثاً، عدم التحدث بلغة الضاد لمدة ألف سنة، رابعاً، تغيير اسمه من عدنان إلى جيمس، وبعدها تقديم أوراق خبراته كخبير أجنبي يقطر نقاءً أجنبياً وبعداً عن العروبة!

في أرقى مستشفيات الفرنجة بدل عدنان لون جلده، وركب صرامة أجنبية على وجهه، وصبغ شعره وغير لون عينيه. في السجل المدني في أحد بلاد الفرنجة غير اسمه من "عدنان القحطاني" إلى "جيمس أندرسون". وفي شهادة ميلاده الجديدة غير اسم أمه من "فاطمة دعبس" إلى "ليزا ويلسون". وللتخفف من كل الماضي السابق طلق زوجته عائشة وأخذ له "غيرل فريند" لأن ذلك سيكون أكثر تأثيراً في الوسط العربي الذي سيحل خبيراً عليه لا يُشق له غبار. تعلم الغولف وأعلن أنها رياضته المفضلة، مع أنه كان يمقتها ويراها مملة وتافهة. أدخل نفسه في دورة تأهيلية لمدة نصف سنة تعلم فيها كل عادات وأمزجة "الخبراء الأجانب". من اليوم فصاعداً لن يقبل أي دعوة إلا على الدرجة الأولى أو درجة رجال الأعمال في الطائرات، ولن يحل ضيفاً إلا في أرقى الفنادق، وسيلف ساقاً على ساق فوق أي مكتب أو منضدة أمامه ويواجه بها محدثيه! التواضع السمج الذي تعود عدنان أن يمارسه سيتخلى عنه بالثهي أو بالعصا. البشاشة والبساطة والتبسم المجاني والتلقائية والعفوية والاقتراب من الناس وتحطيم الحواجز الرسمية ورفض التخاطب بالألقاب وكل ذلك من موشحات الخلق السمج وضعها في ثلاجة درجة حرارتها مائة تحت الصفر وأفلها. "عدنان القحطاني" دُفن، و"جيمس أندرسون" انبعث. جيمس صار خبيراً غريباً يستعرض ذاته في المناسبات ذات العلاقة ليتم التعرف عليه و"اكتشاف" عبقريته من قبل قبيلته السابقة... وحتما سوف يصطادونه!

جاءت فرصة العمل المغربية، قدم جيمس أوراق خبراته من موقعه المتقدم في مؤسسة متقدمة في بلاد الفرنجة، وباسمه الجديد، للوظيفة المُعلن عنها في بلاده. جاءه الرد سريعاً. كان عدنان، المقبور أعلاه، قد تقدم لنفس الفرصة المغربية في وقت سابق، لكن لم يأت الرد بتاتاً. جيمس نظر في عيون عدنان نظرة استهزاء واستخفاف: كان يحمل عرض العمل بيده وبلوح به أمام عدنان كأنما يقول له: مُت كمدّاً يا ابن قحطان! فرك في جروح عدنان ملحاً عندما أخبره عن الرقم الفلكي للراتب الشهري، والميزات السنوية، والبيت الفاره، والسيارة، والإجازات السنوية الطويلة، ومنح تدريس الأبناء المجانية. عدنان اغتاض جداً وتناول منفضة سجائر قريبة وقذفها بغضب شديد على جيمس، لكن



هذا المتفرج كان كان قد طور خبرات متعددة في التمويه وتفادي المنفضة، ثم اختفى ... سليماً معافى!

في مدينة من "مدن الملح" حل جيمس ضيفاً على مضيفيه الفرجين بـ "الخير الأجنبي". حدثهم جيمس أنه جاء إلى هذه البلاد لأنه "يعشقها" وأنه طوال عمره كان يحلم بأن يأتي إلى الصحراء وشمسها الالهية ويعبُّ من سحرها وغموضها! كان جيمس قد قرأ مزامير "الخبراء" الموحدة وعرف أن المزمارة الأولى هو التغزل بمرؤوسيه وبلدهم وصحرائهم وكل شيء فيهم. قال لهم أن جده لأمه، "مايكل وبلسون"، وهو من فخذ مهم من عشيرة أندرسون الكبيرة، كان قد زار المنطقة قبل ستين عاماً، وترك مذكرات لم تُنشر كتب فيها أشياء مذهلة في عشق هذه البلاد، وأنه من يوم أن وقعت عيون جيمس على تلك المذكرات وهو يحلم ويتمنى أن يقتفي أثر جده. الشيء المدهش أن أجداد كل الخبراء الأجانب كتبوا عنا أشياء رائعة في مذكرات لم تُنشر. تياً للناشرين الكسالى! كان الجميع يُنصتون بانهار ساذج إلى جيمس، وتطوع بعضهم بالتصديق على بعض الحوادث الصغيرة التي ذكر جيمس أن جده مايكل شهدها أو قام بها أثناء مكوثه سنوات طويلة هنا. فقد تذكر بعضهم أن أجداده في مدينة الملح تلك كانوا قد ذكروا شيئاً ما عن افرنجي ساعدهم كثيراً وان وصفهم له يشبه كثيراً وصف جيمس لجده!

على كل حال مزامير "جيمس القحطاني" اشتغلت بكل نجاح. تسلم عقد العمل والبيت والمسح والسيارة والخدم والحشم. دخل جيمس بيته الجديد المطل على البحر دخول الفاتحين. مرآه كبيرة وسط البهو الواسع استقبلته بعد أن ودع الحاشية التي أوصلته إلى المكان، خبيراً لا سابق له. تقدم مزهواً خطوتين باتجاه المرآه وحملق في صورته بدقة. تفرس في عيونه الزرقاء اللامعة. مسد شعره الأشقر الناعم الجديد وابتسم. تحسس بشرة وجهه البيضاء باحمرار. فعلاً إنهم أطباء محترفون في ذلك المستشفى، قال لنفسه! نظر أكثر ثم قهقه عالياً عندما رأى "عدنان القحطاني" يحاول الظهور في المرآه ويقفز من خلف صورة جيمس. كرر له اللازمة بلؤم: مُت كمدأ يا ابن قحطان!

قبل أن ينقل قدمه خطوة باتجاه الصالة المطللة على البحر دق جرس الباب الموسيقي بشكل متواصل ومزعج. تحرك جيمس ببطء الخبراء وعجرفتهم وفتح الباب. كانت كل الحاشية التي أوصلته محتشدة وراء الباب، ورئيسهم يحمل ملفه وفيه صورة عن شهادة ميلاد جيمس الأصلية. عيونه حمراء تقدح بشرر، وبصوت من تعرض الى خديعة كبرى قال لجيمس: أنت أمك أسمها "فاطمة دعبس"؟ أنت مين ومن وين أصلك؟ تعال معنا تعال!



مغامرة "جيمس القحطاني"... قصة قصيرة شبه حقيقية ظلت تحدث

بتصرف عن مقالة نُشرت في نوفمبر 2008 ومن يومها ظل جيمس القحطاني يكرر مغامراته!

الكاتب: خالد الحروب